

## المنهج النبوي ومفهوم التغيير الحضاري

سوف لا نسعى إلى البحث عن مفهوم للتغيير الاجتماعي من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، والسلوكية الحديثة، لسبب واحد، هو أنها ليست في العمر الحضاري الذي تعيشه أمتنا عموماً، والحركة الإسلامية التغييرية خصوصاً. فالموقع العملي للأحداث التي تمر بها الأمة داخلياً، وخارجياً، مختلف عما يدور في الذهنية الحضارية المعاصرة، ولما تسعى إلى تحقيقه من الأهداف، تبعاً لتصورها الكوني. أعني أن هذه العلوم، وبشكل خاص علم اجتماع التغيير والحضارة، والثقافة، تعيش في عمر حضاري آخر، يتصل بجذلية الحضارة القائمة، وصورورتها التاريخية الذاتية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها، مالم تصبح معارفها معبرة عن القانون الفطري، الذي يحكم الخلق.

ومراعاة اختلاف الأعمار الحضارية، لازمة منهجية في مجال التغيير الاجتماعي، وقد أشار إليها ابن خلدون بذكاء في قوله: (اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور، خلقاً، من أحوال ذلك الطور، لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع لمزاج الحال الذي هو فيه)<sup>(١)</sup>. وابن خلدون هنا، يوضح قاعدة مهمة في مستوى الدولة، يمكننا أن نعممها لتصبح حاکمة للسلوك الحضاري، وهذا ما أكده مالك بن نبي رحمه الله، بقوة في قوله: (وعليه فلا يجوز لأحد وضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكانة أمته، بل عليه أن تتسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته، مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته.. أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعاً للجهد، ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد

(١) مقامة ابن خلدون، عبد الرحمن محمد بن خلدون، تحقيق: د: عبد الواحد والفي، دار نهضة مصر العربية للطباعة والنشر، ط: ٢، ج: ٢، ص: ٥٥٢ - ٥٥٤، بتصرف خفيف.

في هذا الميدان، جهل وانتحار.. وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية، ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة الحضارية التي ندرسها.. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها، في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية<sup>(١)</sup>. ونفس الموقف نجده عند المفكر السيلاني المسلم البروفيسور عبد المجيد مكين، الذي يرى أنه: (في ظل الطرح الإسلامي، يبدو لنا معيار الوحي، هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر الإسلامي؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئاً، في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية، ومغازيها الحقيقية، وأبعادها الجوهرية، التي لا يمكن فهمها إلا في ضوء معيار الوحي. فالظواهر الإسلامية لا يمكن إدراكها بمعزل عن منهاج الوحي، وسياقه الذاتي. فالطريقة العلمية الحديثة تبقى دوماً مفتقرة إلى عنصر أساسي، هو مخ البحث وروحه؛ وهو من هبات معيار الوحي للباحث المسلم، حيث لن يجد هذا العقل ذاته، ووعيه، إلا ضمن هذا الإطار)<sup>(٢)</sup>.

فعندما أؤكد على هذه القضية، فتأكيدي لا ينفي التعامل مع المناهج الاجتماعية السائدة في الحقل التغيير، وإنما يتطلب الأمر دائماً أن نستعمل إمكاناتنا العقلية، ومنهجيتنا الذاتية كيما نتجاوز بعض المراحل الخطيرة.. والمنعطف الحضاري الراهن، الذي نعيشه، منعطف من المنعطفات، التي تحتاج إلى تجاوز أصيل، لأننا نعيش في مرحلة التأسيس لعمل نهضوي جديد، سوف يشرف في مستقبل الأمة، وسترى الأجيال اللاحقة عمل أجدادها الذي قاموا فأعلنوا ضرورة العودة إلى مصدر الطاقة الخلاقة، الذي أشع من قبل على الإنسانية، عندما فتح لها طريق التفكير العلمي، الذي يخضع لقواعد منهجية

(١) شروط النهضة، ص: ٤٧، ٤٨.

(٢) معيار الوحي في الفكر الإسلامي، البروفيسور عبد المجيد مكين، ندوة عقدت في اليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان، طوكيو، ٢٠ - ٣٠ مارس ١٩٨٠م باللغة الإنجليزية.

ومعيارية اخلاقية ، قصد بها الشارع الحكيم تحقيق مقاصد الخلق في الدارين .

## التغيير الحضاري في ضوء وعي المنهج النبوي

إذا لابد لنا أن نبحث عن معيار آخر، نعرف في ضوئه التغيير الحضاري، ونحدد مضامينه . ولا يمكن ابتداءً أن نعثر على هذا المعيار إلا في إطار (النظام التوحيدي) أعني في معيار الوحي الإلهي، الذي يشتمل على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

فتحديد مضمون للتغيير الحضاري، لابد أن يتم من خلال استقراء لمقاصد «الوعي التغييري في المنهج النبوي»، وفهم عميق على المنهج التغييري الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام في عملية البناء الاجتماعي الأولى، أي في (عملية الإسلامية الحضارية الشاملة)<sup>(١)</sup> الأولى التي حقق بها مرتبة (الامة) للجماعة الإسلامية المؤسسة للحضارة التوحيدية .

### طبيعة التغيير الإسلامي

إننا كلما تعمقنا في فهم الأشياء، وفق نموذج الإيمان التوحيدي، كلما أحسنا بضخامة مسؤوليتنا أمام الله، ثم أمام أنفسنا، وأمام التاريخ، وأدركنا خطورة واجباتنا أمام الواقع الإنساني المعضل، وخاصة في مراحلها الراهنة، وأطواره المتوقعة . فموقفنا الحضاري اليوم ما زال غامضاً، وبشكل ملح في ميدان قدرتنا على وعي مناهج التعامل مع خطاب الله تبارك وتعالى، وفقه ضرورات استيعابه العملية، أي على المستوى الاجتماعي كمشروع حضاري . وسوف لن يتحقق لنا وعي رسالي اجتماعي، إذا لم ندرك موقفنا الجماعي (كامة) إزاء

(١) راجع كتابنا ، الإسلامية الحضارية الشاملة - مقدمات في المنهج - مخطوط . .

موضوع وجودنا الحقيقي في هذا العالم الأرضي . أعنى موضوع (الاستخلاف) وتبعاته على صعيد العبودية والعمران . وهذا الأمر لن يتم لنا على الوجه المرغوب، إذا لم نفهم موجبات تحصيل « التغيير الاجتماعي » في واقع أمتنا المتردي . فالتغيير اليوم من متطلبات استمرارية الأمة، ومن شروط استعادتها لهيئتها الحضارية، وتمكينها للناس، كيما يسترجعوا ما فقدوا من فطرتهم الخيرة . والحديث عن التغيير هنا لا ينسحب إلى ما رسخه العقل الغربي منذ أربعة قرون؛ القرون التي ولدت فوضى العالم الغربي المنهجية والثقافية الراهنة، ولكن التغيير المنشود هنا هو ذلك الجهد الإنساني، الذي يتيح للناس فرصة توفير موجبات « الوراثة الحضارية » ويعينهم على السير السُنني في الكون . فهو تغيير عالمي، علمي، عملي، سيتجه بالإنسانية من « العهد الحضاري » إلى « الطور الاستخلافي »<sup>(١)</sup> الذي سيعبر عن الفعالية الكونية للتوحيد من الوجهة الاجتماعية ، ويفسر المشروع الحضاري للإسلام من الوجهتين النفسية والثقافية ، كما سيعلن عن إفلاس المنطق البشري الخاضع لسلطان المستكبرين، ويخلصه من نزعة : « أتعبدون ما تحتون » ويمده بالقدرة على فهم قيمة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ إذ بين القراءة باسم ما تحتون، والقراءة باسم ربك، فرق كالفرق الموجود بين الكفر والإيمان، والباطل والحق .

(١) راجع كتابنا ، الإسلامية المضارية الشاملة - مقدمات في المنهج - «مخطوط» .

## الفصل الثالث

# المنهج النبوي كمركب حضاري

فرغنا فيما سبق، من الحديث عن بعض الافكار المتعلقة بالجانب النظري لعملية التغيير، في ضوء المنهج النبوي، وبقي لنا في هذا الفصل أن نقدم تفسيراً نفسياً ثقافياً، واجتماعياً تربوياً، لدور المنهج النبوي في تركيب حضارة، وتوليد أمة في التاريخ هي (الامة الإسلامية).

ففي كل عمل تغييرى، أو توليدى لثقافة حضارية، لابد من فلسفة تغييرية، أو « توليدية » تقوم بتركيب عناصر الاجتماع البشرى، لتنتج منها وحدة تاريخية تمثل في جوهرها « المجتمع الوليد »، الذي سيسعى إلى تحقيق رسالة جماعة من الناس، في ظرف زمني معين، استجابة لمذهبية كونية معينة، وبوسائل معينة، ولغاية معينة.

### مشكلة توجيه العملية التغييرية

الدارسون لميلاد مجتمع، كحدث تاريخي، والمتبعون لتلك اللحظات الحية التي تهيئ لنشوء اجتماع بشري رسالي، صادر عن عقيدة تغييرية معينة، تحمل في أحشائها مشروعاً اجتماعياً تغييرياً، يحتاجون في الحقيقة إلى فهم بعض القضايا المتعلقة بجملة من الترتيبات الأولية، ذات الصلة بفلسفة التغيير، ومنهجيته. فانطلاق أي تغيير اجتماعي، مشروط ببعض المراحل الأساسية، التي تمثل في جوهرها « تحدي » واقعي لحركة التغيير، وعلى رأسها « القيادة التغييرية » التي تحمل « همّ » توجيه العملية التغييرية، بكل ما تحمله هذه المهمة من صعوبات، وابتلاءات متنوعة المصادر، ومختلفة الأشكال، ومتباينة الشدة

والقوة . فالعملية تستدعي وعياً معيناً، نطلق عليه تسمية « الوعي الانطلاقي » الذي يحتاج إلى نظرية في « التوجيه الانطلاقي » وأعني به ( جملة الافكار، والأعمال، والإجراءات، والخطوات المتعلقة بالإجابة عن هذه التساؤلات : مامضمون النموذج الجديد، الذي ننتمي إليه؟ وماذا نريد من خلاله؟ وكيف نحقق ما نريده؟ وما هي الوسائل المطلوبة لذلك؟ وكيف نتعامل مع الوضع القائم، الذي نريد تغييره؟ وبأي منهجية نعالج قضاياها؟ فهذه المجموعة من الاستفسارات، بحاجة إلى مخطط، وبرنامج يحدد كل عنصر من عناصرها، ويقدم له الإجابات النظرية، والعملية الكفيلة بحل إشكالاته، وتحقيق متطلباته .

إن التوجيه في لحظات إنطلاق العملية التغييرية، يختلف حتماً عن التوجيه الذي سيأتي بعد إنجاز هذه الخطوة، بحيث تطرح فيما بعد، أنواع أخرى من التوجيه منها: « توجيه المحافظة » على ما حققته الحركة التغييرية من منجزات على مختلف الأصعدة التغييرية، ومنها « التحدي الاستيعابي » الذي يقوم بحل ما يواجهه الحركة داخلياً وخارجياً من سلوكيات ومواقف، قد تغير مسارها عن مسالكه الصحيحة، ومنها « التوجيه الاستمراري » الذي يهدف إلى دفع الحركة لتستمر في خط سيرها الأصيل، وتدوم في حركتها التغييرية، مهما كانت التحديات .. ومنها « التوجيه التقويمي » الذي يقوم بعمليات التقويم اللازمة، وللأشخاص، والأشياء، والافكار، في المنعطفات المختلفة للعملية التغييرية ..

ومنها « توجيه التوريث للتغيير » بمعنى التفكير في مناهج، وكيفيات، ووسائل توريث الرسالة التغييرية بين الأجيال المختلفة، كيما تواصل الحركة فعلها التغييري دونما انقطاع، وتمرد على الأصول .. ومنها « توجيه تنمية الوعي مع حركة التغيير » وفيها يطلب تجنب تخلف الوعي التغييري عن هموم المجتمع، ومتطلبات المرحلة، وضرورات الزمان والمكان .. إلخ . فكل هذه الأنواع من التوجيه وغيرها بحاجة إلى وعي تام، من قبل القيادة التغييرية على الأقل، كيما تتمكن من

خوض معركة البناء، والتغيير بكفاءة .  
فالتوجيه إذن مشكلة من المشكلات الأساسية في أي عمل تغييري، غاية  
بناء مجتمع على أصول رؤية كونية معينة .

## فلسفة البدء والتوجيه الانطلاقي

التوجيه الذي يلزم القيادة التغييرية في لحظات الانطلاق، يعتبر من أقسى  
التحديات في المجال « المنهجي »، لأن حركة « التحديات » للواقع القائم، ستسعى  
إلى مخاطبته بنوع جديد من الواجبات والأفكار، التي تختلف كثيراً أو قليلاً  
عما ألفه من أوضاع؛ وفي القرآن تعبير عميق عن هذا النوع من التحدي، الذي  
تواجهه المجتمعات القائمة، من قبل قوى التغيير الجديدة، فيكون جوابها ما تعبر  
عنه هذه الآية بعمق:

قال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ  
مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) .

فهذا النوع من الإحساس، والسلوك المضاد لحركة التجديد، إنما مرده إلى  
النفسية الأثرية، والمقتدية بغير وعي، والمحافظة على الوضع القائم الذي ألفته،  
وتحول عندها إلى ثقافة أبائية مستحكمة . ومن هنا تكون الحركة التغييرية كمن  
يريد إيقاف أنفاس المجتمع القائم، وقبض روحه القديمة، ولهذا فالمجتمع القائم،  
يرد بعنف على هذا السلوك، « والمجتمع الجاهلي » الذي عاصر النبي ﷺ خير دليل  
لهذا النوع من السلوك .

ولكي يكون التوجيه الانطلاقي متماشياً مع قوانين البناء الحضاري، فإن  
القيادة التغييرية مطالبة بمواجهة، وتوجيه أول عمل على طريق التغيير الاجتماعي  
وهو : ( التحديد الدقيق، والصحيح لموقع المرض، والازمة القائمة في كل  
مستوياتها ) وعليه فمشكلة أي حركة تغييرية تلك المتصلة بالتاريخ التكويني

لها، هي امتلاك القدرة الكافية على التحديد الإيجابي لموقع، ونوعية المرض، الذي يراد استهدافه بالعلاج؛ إذ الأمراض تختلف، وتتنوع بشكل كبير. فمريض السرطان مثلاً يختلف عن مريض السل، أو فقر الدم على الصعيد البيولوجي، ومريض الثقافة، يختلف تماماً عن مريض السياسة، أو الاقتصاد، على الصعيد العقلي. وهكذا فالتحديد مطلوب ولازم، لانه بهذا العمل الاساسي الاولي تنبني فلسفة الانطلاق في التغيير، ومناهجه، واهدافه، ووسائله، وطبيعته. والمعجز عن أداء هذا العمل المفصلي، سيؤدي حتماً إلى تضييع الجهود و«تبيدها» خارج دوائر التغيير المطلوب، وربما «تحريفها» عن مسارها الحقيقي، وهذا ما حدث مثلاً مع الثورة الفرنسية، التي استأثرت بها جماعة على حساب الفلسفة الانطلاقية، التي قامت الحركة لتحقيقها، ونفس الامر تقريباً حدث للثورة الإسلامية التحريرية في الجزائر.

فاول نقطة استفهام كبرى تواجه القيادة إذن، في الطور الاول من اطوار التغيير الاجتماعي، هي تقديم الجواب الصحيح، والواضح المعالم، والذي تضبط به مشكلة المجتمع ضبطاً محكماً، بحيث تعرف طاقاته، وإمكاناته، وقواه المختلفة، وتناقضاته المتنوعة، ونقاط الضعف والقوة فيه، وتدرک مداخل استجابيات أفراده، ومفاتيح التعامل مع عقائدهم، وطبائعهم، وعوائدهم، ومواقفهم التي درجوا عليها. والقيادة التغييرية، عندما تقوم بهذا العمل، ليس فقط من أجل التوجيه الخارجي للمجتمع، ولكن وبشكل ملح من أجل التنظيم الذاتي لطاقاتها، وإمكاناتها، وتوجيه مشكلاتها، وحل معضلاتها، وترتيب قواها للمواجهة، والمراجعة، والإقدام، والإحجام..

إن فلسفة البدء في التغيير، وكل ما يتعلق بها من شروط، ومتطلبات، تقوم أصلاً على هذا «التحديد» وتعتمده في صحتها وخطئها. فلا يمكن وضع برنامج ناجح للتوجيه الانطلاقي في مختلف مراحل ومستوياته بدون هذا الوعي



على المشكلة، وامتداداتها التاريخية، والثقافية، والاجتماعية، والسلوكية،  
والمنهجية ..

## المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية

إن ميلاد الجماعة في التاريخ، يعني من جهة، ظهور فكرة جديدة، داخل حركة المجتمع، تكون مسنودة في كل الحالات بقيادة تغييرية، ويعني من جهة أخرى، بداية ظهور حركة وجود جديد، ينزع إلى تحدي الوضع القائم، ويسير بشكل معين، لتحقيق غاياته، ومضامين عقيدته، من الناحية الواقعية. بمعنى أن الحركة الجديدة، سوف تؤدي إلى « توليد نموذج تربوي »، لبناء إنسان جديد، يتبنى الفكرة الجديدة، ويعمل من أجل تحقيقها في حياة الناس. وهذا مما سيؤدي إلى وضع نواة بناء اجتماع بشري، يتميز بخصائص ثقافية معينة، مازالت في حيز القوة. فميلاد الجماعة في التاريخ، هو عنوان على بداية دورة حضارية، ذات نزوع عقائدي، مخالف لما هو موجود في لحظات ميلادها. فهذه الجماعة تقوم، وتحرك، لأنها تشعر بضرورة، وأهمية، وإلزامية حركتها، وذلك بغرض تغيير شرائط واقع، لم يعد قادراً على تقديم دوافع العيش لأفرادها، ومؤسساته، وأفكاره المتقدمة، التي تحتاج إلى تجديد، كيما يرتفع وعيها إلى مستوى الأحداث، التي يمر بها « الوعي الجماعي » للمجتمع في صلاته الداخلية والخارجية. ومصيبة « تخلف الوعي »، عن فهم ومعايشة وقائع حركة العالم، من الإصابات المنهجية، التي تعيشها كثير من المجتمعات المعاصرة، والتي منها المجتمع الإسلامي الراهن.

إن ميلاد الجماعة من الوجهة الثقافية، دليل على ظهور منهج جديد للسلوك الاجتماعي، وبروز اتجاه فكري، يحمل قيماً تهدف إلى إعادة بناء المجتمع القائم، وطبعه بطابع آخر، لِمَا يتحول بعدُ إلى نظام ثقافي مُرَوِّد للسلوك، والنشاط

الاجتماعي . فعندما يصبح ثقافة اجتماعية فذلك إعلان، على أن الجماعة قد بدأت رسالتها، ودخلت بذلك إلى ساحة « العمل الحضاري»، وفي هذه الحالة تكون القيادة التغييرية، مطالبة بالتنزيل المستديم لمضمون عقيدتها، ووجهتها الحياتية إلى عالم النفوس أولاً، ثم إلى عالم المجتمع، الذي ينقله بدوره إلى عالم الثقافة، التي تقوم بتغذية جنين الحضارة، وتمده بلوازم النماء، والنمو، والنضج، والاستمرار . فهذا هو ميلاد الجماعة في التاريخ ( ولكن عندما نتحدث عن ميلاد معين، فإننا نعرفه ضمناً « كحدث» يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير، التي تتعرض لها الحياة، ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين جماعة معينة . . الجماعة التي تغير دائماً خصائصها، بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير)<sup>(١)</sup> . فهذا النظام من العلاقات، هو الذي يشكل المغزى الثقافي للجماعة، التي تريد إنجاز عملية التغيير . « فالتوليد الجماعي المشترك للتاريخ» ليس عملاً عفويًا، بمقدار ما هو جهد خاضع لسنن البناء الحضاري، التي تحكم مقاييس السلوك، داخل عالم الافكار، والأشخاص، والأشياء . إذ ( العمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص، والافكار، والأشياء، جميعاً، ومعنى هذا أنه لا يمكن، أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة، لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص، وبين هذه العوالم، لتشكل كيانها العام من أجل عمل مشترك . . . وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية)<sup>(٢)</sup> . ونحن نريد أن ندرس المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية في هذا المستوى، وذلك باستيعاب النموذج النبوي، موضوع هذه الدراسة .

(١) ميلاد مجتمع ، ص : ١٤ - ١٥ بتصريف خفيف .

(٢) المرجع نفسه ، ص : ١٦ .

## الترشيد النبوي ونموذج التغيير الرسالي

كما أسلفنا القول: فإن أول عمل تؤديه «القيادة التغييرية» على طريق نفي «الخبث الحضاري» هو تحديد موقع المرض الاجتماعي، باعتباره لازمة منهجية في علم التغيير الحضاري.

ومن هنا كان أول عمل أنجزته القيادة النبوية بدقة بارعة، وإيجابية كاملة، وترشيد واعٍ، هو إدراك طبيعة المشكلة، التي كانت تعشش في النفسية الجاهلية، وفي أعماق العالم الثقافي المعاصر للرسول ﷺ. لقد أدركها عليه الصلاة والسلام بشكل مستوعب، استوفى شروط التحديد المنهجي العميق؛ وهذا الأمر يتبدى لنا بجلاء في المواقف، والسلوكيات، التي كان يتخذها النبي في سياق ترشيده للعملية التغييرية، وتعامله مع النفسيات، والعقليات، والثقافات، والمشكلات المطروحة عليه يومياً. لقد فهم عليه الصلاة والسلام مشكلة المجتمع المنهك عقيدياً، وثقافياً، وأخلاقياً، وأديباً، وسلوكياً.. ففي أعماق الواقع الجاهلي الذي كان مخرباً من الوجهة العقائدية - مما سمح بانتشار عبادة الأوثان، والأصنام، والمعبودات الأرضية المتنوعة «إثنوية، ثالثية، تعددية» - ومنهاراً من الناحية الاجتماعية، والثقافية، التي فتحت الطريق لظهور الزنى، واللهو، وشرب الخمر، وإتناء المحرمات، وواد البنات، والرق، والعبودية، كما أنه متحلل من الناحية السياسية التي جسدت «العقلية الفرعونية»، ومختل من الناحية الاقتصادية التي كرس «الثقافة القارونية». ففي ظل هذا الوضع المتأزم، كان الرسول ﷺ يمارس عمليات الترشيد للعملية التغييرية، ويتحرك بوعي لترسيخ معالم النموذج التغييرية الحضاري الإسلامي.

## المنهج النبوي والنظرة الكلية للمشكلة

لقد قام النبي عليه الصلاة والسلام بمعاينة المريض الجاهلي، وتشخيص أسقامه على مستويات متعددة، نركز في هذه الدراسة على مستويين:

- المستوى الكوني، أي مستوى الرؤية الكونية؛
- والمستوى الاجتماعي، أي مستوى المشروع الاجتماعي.

## أولاً : الرؤية الكونية

لقد حدد النبي عليه الصلاة والسلام، أزمة «إنسان ما قبل الإسلام» في مستواها الكوني عن طريق الوعي القرآني، وأرجعها إلى «مشكلة غياب الرؤية الكونية الصحيحة» لقضايا الإنسان، والكون، والحياة، وموضوع كل واحد منها وغاياته، ووظائفه.

فلم يكن عليه الصلاة والسلام، ليضع مكان المرض أعراضه، ولا مكان الأعراض أسبابها، ولا مكان الأسباب آثارها، ولم يكن ليغير الواقع الاجتماعي المخرب، قبل تغيير واقع أسبق منه منهجياً هو «الواقع النفسي».. ولم يكن ليغير الواقع النفسي، قبل امتلاك نموذج تربوي للتغيير، يستقيه من «مذهبية كونية».

فالنبي عليه الصلاة والسلام يتحرك في وسط بشري، ولكنه موجه بتعاليم الوحي الأعلى، الذي دوى صوته من لحظات «اقرأ» العالمية التي نشرت صوت الرسالة الخاتمة. فتلك هي اللحظات التي طبعت وعي النبي ﷺ للأشياء، وحددت له وجهة التغيير، ومنهجيته. كما صاغت فهمه للحوادث والأفكار، وشيدت إدراكه للسنن الإلهية، وفتحت له سبيل الرشاد، والهداية. ومن هنا كانت حركته الترشيدية، متصفة بالخصائص الثلاث، التي أشرنا إليها في مدخل

هذه الدراسة: الوعي المقاصدي، والوعي البلاغي، والوعي السنني. ففي سياق فهمه لطبيعة المرض على المستوى الكوني مثلاً، رأى بأن المرض عقائدي متصل بازمة غياب الرؤية الكونية الصحيحة، التي تهدد نشاط الناس، وترهبهم الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتسلك بطاقتهم على طريق مشروع حضاري، يخدم غاية تنفعهم في دنياهم وأخراهم.

فطبيعة الأزمة كونية، وتصورية، وهي نتاج لافتقار النموذج الحياتي السليم، والصحيح، الذي يشكل للناس شرعة، ومنهاجاً، يحدد لهم معالم طريق الاستخلاف، ويرسم لهم ابعاد المذهبية التوحيدية، في مستوياتها الاربعة: الخالق سبحانه وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة.

فهذا الغياب للرؤية الكونية، هو الذي أنتج «إنسان الفراغ الكوني»، الذي لا يملك أجوبة مقنعة، وصحيحة، عن التساؤلات الكونية الكبرى، التي لا تستقيم الحياة البشرية بدونها.

## المعالم الكبرى للمذهبية التوحيدية

فالمذهبية التوحيدية<sup>(١)</sup> التي غير بها رسول الإنسانية ﷺ وجه التاريخ الجاهلي، وبنى بها حضارة الإسلام السامقة، تتشكل من منطلقات أساسية سنحاول إثباتها في هذا العنصر دون شرحها— وذلك بسبب طبيعة البحث، ومنهجيته الحالية – وهي:

– التوحيد كأساس مفاهيمي، وتشريعي، ومعرفي.

– الإيمان والتصديق بوحدة بعث أنبياء ورسول لكل الأمم بدون استثناء، قال

تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

(١) ستأثر الأبعاد العامة للمذهبية التوحيدية تاريخاً التفاصيل والاستدلال والاحاديث والتحليل الاجتماعي لها لناقشها في كتابي الإسلامية الحضارية الشاملة بحول الله.

- ضرورة الإيمان والتصديق بالملائكة .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة مضمون البلاغ الرباني للناس كافة « عبادة الله، وتعبيد الناس له » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للبلاغ والوحي « المولى تبارك وتعالى » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة جهل الغيب الإلهي، من قبل البشر .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة القضاء والقدر، خيره وشره .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة نصره الله للأنبياء والمرسلين، ولعباده الصالحين .
- ضرورة الإيمان والتصديق بأن الأرض يرثها الصالحون .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للمخلوق والكون والحياة « الله سبحانه وتعالى » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الابتدائية للمخلوق .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الهدفية للمخلوق « الاستخلاف » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التشريعية للمخلوق « الله هو المشرع الحقيقي » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التكريمية للإنسان « كل البشر بدون استثناء » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الفطرة، والإرادة البشرية « في اختيار الخير والشر » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة المسؤولية الفردية للناس عن أعمالهم أمام الله سبحانه وتعالى .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الرزق الإلهي للمخلوقات كافة .

- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير الكوني « الكون المادي » للناس كافة .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير السنني « الكون السنني » لكل البشر .
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصيرية للخلق، « الموت والرجوع إلى المولى تبارك وتعالى » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة بعث الخلق بعد الموت .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الحساب الإلهي، للناس .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الجزاء الإلهي « الجنة والنار » .
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة العدل الإلهي .

## ثانيا : الرؤية الاجتماعية

عندما نتأمل المشكلة السابقة من منظور عالم اجتماعي، تبرز لنا أحد الجوانب الأخرى اللازمة للجاهلية . الجانب الذي يصلنا مباشرة بعالم الممارسة اليومية، والحركة الواقعية للإنسان الجاهلي في ظل الثقافة الجاهلية . الثقافة الأرضية العاجزة عن السمو إلى مستوى الوعي التوحيدي . فالظاهرة الجاهلية من هذه الزاوية ترسم لنا صورة أخرى، من صور المازق العقائدي، الذي كان وراء محنة الجاهلية . فالإنسان هناك كان سلبياً لجملة من الأهداف كرس ذاته، وحياته، وطاقاته ليحققها . فكل قدراته الذهنية، والجسدية، والمادية موجهة لخدمة هذه الغاية، والدافع الأساس الذي كان وراء حركة الجاهلي ، والمبرر المعقول بالنسبة إليه ليتحرك بالشكل السلبي، الذي أشرنا إليه، هو تلك الأهداف التي سنتعرف عليها من خلال هذين المثالين :

## المثال الأول :

ففي مقالة جعفر بن طالب للنجاشي في أعقاب حوادث الهجرة الأولى إلى الحبشة قال : ( يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، وناكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، وياكل منا القوي الضعيف )<sup>(١)</sup>.

## المثال الثاني :

في مقالة مبعوث الكفار عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ قال : ( يا ابن أخي إذا كنت تريد بما جئت به من هذا مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع دونك، وإن كنت تريد به ملكاً سودناك علينا )<sup>(٢)</sup>.

يبدو أن هذا البيان المختصر عن حالة المنطق الجاهلي، يستطيع أن يقدم لنا على الأقل الصورة الأساسية لطبيعة الحياة الجاهلية، وملامح فلسفتها الاجتماعية. فالبشر هناك من الوجهة الاجتماعية، يعانون من خلل، جعلهم رهائن « دائمين » لجملة من الأهداف السلبية، التي لم تتح لهم فرصة تفتيق طاقاتهم، وتسخيرها في خدمة رسالة معينة، ترتفع قليلاً أو كثيراً عن الفلسفة الأرضية المغرقة في المادية، والظلم الاجتماعي. لقد حصر الاجتماع الجاهلي نفسه في سجن « الاهتمامات البسيطة » المتوارثة، عن أجيال الفراغ العقائدي. ويبدو كأن خلاصة أمراض الجاهلية الإنسانية، وجدت لها مكاناً آمناً للتعشيش، والبيض، والتفريخ، والنمو في ذات الجاهلي. فالجاهلي يقدم لنا أزمة مثلثية الشكل، تشتمل على ثلاث زوايا :

- زاوية الهوى والاشتغال بالعرض الدنيوي الزائل.
- وزاوية عبادة الصنم، والإعراض عن الحق تبارك وتعالى.
- وزاوية الجمود العقلي « الآبائية » والركود الثقافي.

(٢) المرجع نفسه، ص : ٢٩٥

(١) السيرة النبوية، ص : ٢٣٦



قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤٣)  
﴿ أَتَقْبِدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ﴾ (الصفات : ٩٥).

ولو استعملنا اللغة الاجتماعية، للتعبير عن الازمة الجاهلية، لوجدنا بأن هذه « الاهداف البسيطة » لا تقدم مشروعاً اجتماعياً متكاملأً، لتوجيه الطاقة الحيوية للمجتمع، كيما تتحرك على خط التحضر، والثقيف، تبعاً لإيديولوجية معينة. ولهذا فالمجتمع الجاهلي، انعدمت فيه الفعالية الحضارية؛ وبالتالي فقد القدرة على التأثير في حوادث العالم، التي كانت تمر بهدوء يخدر النائمين، بعيداً عن كونه الجغرافي والفكري؛ هناك في ديار الحضارة الفارسية، والرومانية، حيث كانت تصنع الظاهرة الحضارية، استجابة لعقيدة تلك المجتمعات. وسوف نرى بعد مدة غير طويلة، من تحرك النبي ﷺ، كيف أصبحت المنطقة السابقة، محطة لبناء حضاري عظيم، استقطب انظار الحضارات القائمة، وهذا فيما بعد أركانها من الاساس.

إن الناس في المجمع الجاهلي، كانوا يستبسلون في دوامة اهداف بسيطة، دلّ « علم السَّير في الأرض » أنها هي التي أغرقت كل الحضارات القديمة؛ تلك الحضارات التي كانت تقدس أشباه الأرباب الأرضيين، وخير مثال نسوقه هنا هو نموذج المجتمع الفرعوني القديم .. ونفس هذه النزعة سوف تهلك الفراعنة الجدد للعالم .. فراعنة « الاستعمار الديمقراطي »؛ والمجتمع السوفياتي القديم المعاصر، مثال آخر .. وتلك هي سننُ الله في الاجتماع البشري.

إن الأهداف البسيطة لا تمتلك الروح الدافعة، التي تخلق للناس اهتمامات ترتفع بهم فوق وجودهم الأرضي الزائل، وتربطهم بالواقع الرباني المتسامي، الذي يستلهمون منه « النَّفْسُ الحَضَارِي » المُمكن في الأرض .  
هكذا إذن كانت وضعية المجتمع الجاهلي، التي امتدت في الحقيقة ( أكثر من

الفي عام، ابتداءً من الجدل الأكبر لإسماعيل حتى محمد ﷺ، ولقد أثمر هذا التاريخ الطويل فناً غنياً، وخلف تراثاً أدبياً رفيعاً لا نظير له بين الأمم الأخرى، وتلك هي القائمة التاريخية للمجتمع، خلال هذه الحقبة من الزمان، ولو استخدمنا لغة الاجتماع لقلنا: إن هذا كل ما أثمره المجتمع الجاهلي، كثمرة لنشاط استقطب حول « الحاجة » و« المنفعة »، وبذلك نلاحظ أولاً أن هذا المجتمع لم ينتج كثيراً، مادام لم يخضع إلا لاتجاهات الحياة اليومية وقواعدها<sup>(١)</sup>.

من هنا تشكلت الأمة الحقيقية للمجتمع الجاهلي في شقيها: الكوني والاجتماعي. ولكي تحمل هذه الفاجعة الحضارية الكبرى، يتطلب الأمر إحداث تغييرات جذرية في المجتمع الجاهلي، ولن يتحقق هذا إلا بتغييرات جذرية في البناء الثقافي، ولا يمكن تحصيل ذلك إلا بتغييرات جذرية في الإنسان، ولا يمكن إجراء أي تعديل عقلي أو روحي أو سلوكي في حياة الإنسان، إلا بعقيدة كونية معينة. وهذا هو العمل التاريخي الأساس، الذي قام به رسول الإسلام ﷺ.

## المنهج النبوي في بناء الحضارة العالمية

النبوي ﷺ واجه قضية تركيب حضارة، وبناء مجتمع انطلاقاً من واقع معين، ولكي نفهمه بعمق، علينا أن نتعرف على العناصر الأساسية التي ساهمت في تشكيل الظاهرة التغييرية الإسلامية، وهي:

- عالم العقيدة الإسلامية، الذي أشرنا إلى جانب منه في التحليل السابق.
- المنهج النبوي في البناء الحضاري « مرتبط بالسنن، وبمنهج السير في الأرض ».

(١) ميلاد مجتمع، ص: ٤٩.

– الإنسان القديم بموارثه، وأمراضه الكونية، والاجتماعية.

– المجتمع الجاهلي، بثقافته، وتاريخه، ومؤسساته.

– الجماعة المؤسسة للعمل التغييري الإسلامي « الصحابة ».

– القراءة « باسم ربك » كمعجزة حضارية، وكمنهج تغيير.

فالقدره على فهم هذه العناصر في سياقها الاجتماعي، والعضوي، هو الذي سيكشف لنا عن معالم المنهج النبوي، في بناء الحضارة العالمية، من خلال تقديمه لنموذج من نماذجها، وهو المثل الكامل، والقدوة الحضارية، التي تمثل معيار البناء الحضاري الإسلامي.

فالمنهج النبوي في بناء النموذج الاول للحضارة العالمية، ووضع برنامجها، وتأسيس قواعدها، وترسيم حدودها، وصياغة منهجيتها، وتحديد وجهتها، وتعليم مقاصدها، كان منبئاً على اصول الوحي الاعلى، الذي ادار العملية التغييرية، حول محور الإنسان كفرد، وكمجتمع، وكامة، وكإنسانية، وعلى هذا فدراسة الظاهرة التغييرية النبوية، هي دراسة في منهج بناء الإنسان، بما في ذلك فلسفة هذا المنهج، ومشروعه، وغاياته، ومقاصده، وأدواته، وشروطه، وأساليبه، ومنهجيته..

ومن هنا فسنحاول الآن إثبات بعض الملاحظات عن المعالم الكبرى للمنهج النبوي في بناء الإنسان.

## المحاور الثلاثة للمنهج النبوي

إن المتتبع لحركة التغيير النبوي، يجدها قد سارت بتوافق تام، مع سنن البناء الاجتماعي، التي ترافق دوماً ميلاد المجتمعات الحضارية في التاريخ، أعني أن

جهد النبي ﷺ مر بمراحل « الإنشاء الحضاري » الثلاث، والتي سبق وأن أشرنا إليها في فصل سابق وهي :

- مفصل الربط الحضاري للإنسان بالرؤية الكونية الإسلامية.
  - مفصل التثقيف الحضاري للمجتمع على المشروع الاجتماعي.
  - مفصل البناء الحضاري للرؤية والمشروع في شكل واقع ثقافي وعمراني ..
- إن التحليل الاجتماعي، والاستقراء التاريخي، لحركة التغيير الاجتماعي، التي ترافق نماذج التغيير الخاضعة لتوجيه نموذج فكري، قد دلا على أن العملية التغييرية تمر بهذه المفاصل، مع اختلاف منهجي في طبيعة الواقع المستهدف بالتغيير، من حيث الوسائل، والأدوات، والكيفيات، والتوجيهات الاجتماعية، تبعاً للرؤية الكونية، والإمكان البشري، والفكري، والمادي. فالتغيير الذي أجرته الحركة المسيحية على المجتمع الأوربي، وأدخلته بذلك إلى العصر العالمي الراهن يشبه التغيير الحضاري الإسلامي، الذي أدخل المجتمع الجاهلي إلى عالم الحضارات في مفاصل التغيير، أي في أنهما معاً قد مر بمفاصل الربط، والتثقيف، والبناء، ولكنهما اختلفا في الأسلوب، والفلسفة، والمفهومية، والوسائل، المنهجية. فالتغيير الحضاري المعاصر، الذي تسعى الحركة الإسلامية، والحركة المسيحية إلى تحقيقه، سيمر بنفس المفاصل التغييرية الثلاثة: الربط، والتثقيف، والبناء، ولكن مع اختلاف جوهر في الفلسفة، والمنهج؛ وكذلك في اختلاف الوسائل، والأدوات، والتقنيات، والكيفيات، إذا قرناها بما كان عليه الوضع في حركة التغيير الإسلامي، والمسيحي الأولى. فالعصر العالمي الراهن أحدث تغييراً مهولاً في وسائل، وتقنيات التغيير الاجتماعي، تجب مراعاتها في أي تغيير جديد.

فالوعي الذي يجب أن تتمتع به القيادة التغييرية في حقل التغيير، هو ضرورة علمها بأن عملية التغيير الحضاري في الطور الأول من أطوارها، تشتمل على

عوامل ثلاثة هي : عالم الربط الحضاري، وعالم التثقيف الحضاري، وعالم البناء الحضاري، ولكل عالم من هذه العوالم شروطه، ومتطلباته، ومراحله ومناهجه، ووسائله، وأساليبه .. وكل إخلال بحاجة أي واحد منها، سوف يؤدي إلى الفوضى، والتصادم داخل الحركة التغييرية، ناهيك عن مسارها الكلي، وخاصة في المجتمع العالمي الراهن .

## أولاً : المنهج النبوي وعالم الربط الحضاري

عملية الربط الحضاري للإنسان برؤية كونية معينة، هي العمل التاريخي الأول في حركة التغيير الاجتماعي، الهادفة إلى بناء ثقافة .. وعملية الربط أول ما تتحرك، فإن وجهتها، تكون نحو الإنسان، إذ هو غايتها الأساسية، وساحتها الكبرى .

ولهذا السبب كان التوجيه القرآني حاسماً في التنبية على الساحة المركزية للتغيير الاجتماعي الاصيل، وهي الساحة النفسية بمفهومها الشامل :

قال تعالى :

﴿ إِنَّا لِلَّهِ لَا يَغْيِرُ مَا يُقَوِّمُ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَانَفْسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) .

فهذه الآية تحدثت عن ضرورات خاصة بفهم الرؤية الكونية عموماً، وتحدثت عن ضرورات خاصة بالمجتمع، وسلوكه الاجتماعي « سلباً وإيجاباً » .. كما تحدثت عن ضرورات خاصة بالمنهج التغييري .. والذي يهمنها منها في هذا التحليل هو الشق الذي أشار إلى تغيير ما بالنفس، والذي سنبحثه من وجهة نظر النموذج التغييري النبوي<sup>(١)</sup> .

ففي مفصل الربط الحضاري، جاهد الرسول ﷺ من أجل « ربط » النفوس

(١) راجع كتاب : حتى يغيروا ما بأنفسهم ، للأستاذ جوبت سعيد .

والعقول بالخطاب الإلهي، وأتاح لها فرصة الاستجابة لتوجيهات الوحي الأعلى.

## مفهوم الربط الحضاري

إذا ما حاولنا البحث عن كلمة الربط، ومشتقاتها من خلال النصوص

القرآنية نجدها وردت في عدة مواضع هي:

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الانفال : ١١).  
﴿ إِنَّ كَادَتْ لَسُبِّدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠).

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا  
مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ شَطَطًا ﴾ (الكهف: ١٤)

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَابِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ. عَدُوَّ  
اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ  
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الانفال : ٦٠)

ففي الآيات الأربع الأولى، جاءت الكلمة معبرة عن وضع ديناميكي حركي، أي في صيغة الفعل الذي يؤدي إلى نتائج مثل: الثبيت على الحق، والإيمان، والإقرار بالربوبية، والدعوة إلى الله الواحد القهار، والحركة المستديرة في سبيل الحق تبارك وتعالى؛ حيث أشارت الآيات الثلاث الأولى من الأربع، إلى قضايا متعلقة بعالم القلوب، والنفوس «ظاهرة نفسية»، متعلقة بعلوم النفس، أما الآية الرابعة فقد أشارت إلى قضية متصلة بالظاهرة الاجتماعية، والتحرك في

الواقع ، ومسك الثغور، والساحات الجهادية المتنوعة « المرابطة » .. وبعبارة أخرى، الآية تشير إلى « عالم الحركة الاجتماعية » ، حيث علوم الاجتماع البشري .

أما الآية الخامسة، فقد أشارت إلى وسيلة من وسائل المرابطة، أي توجهت نحو « عالم الوسائل » (رباط) . ثم تحدثنا الآيات في مجموعها عن مقاصد، وغايات، ينشدها الإنسان، وعن كيفية الوصول إليها، وفي الإطار الكلي للآيات يقف المنهج التغييري، الذي ترجعه إلى عالم النفوس، وعالم المجتمع، فهو منهج الربط الحضاري الذي يحتاج إلى البنيان البشري المرصوص، الذي يربط في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

إننا لا نقصد هنا، البحث عن المعنى اللغوي لكلمة ربط، وإنما عن المضمون المنهجي، والنفسي، والاجتماعي، والغائي لها . فلو أخذنا مثلاً وجهة نظر مفسر كابن كثير، فإننا نعثر لديه عن فكرة مهمة في هذا المجال، وهذه فقرة من تفسيره: ( ... ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وثبتناهم على مخالفة قومهم، ومدنيتهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ) (١) .

فالربط الذي نمنيه هنا هو الذي يتعامل مع القناعات الخالصة للبشر، بدون ضغط ولا إكراه .. فهو الاقتناع الراسخ ، والارتباط الوثيق بفكرة معينة، وهو كذلك دافع ذاتي في أعماق النفس الإنسانية، بحيث يعطيها طاقة الالتزام الكامل بضرورات العيش، تحت توجيه فكرة معينة .

فالارتباط بالشيء هو السلوك الناتج عن عمليات الربط للإنسان بعقيدة معينة، وفق منهجيات تتطابق مع سنن الله في الربط الحضاري ، فهو من الوجهة

(١) مقتصر لتفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، ط ٢ : السنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م دار القرآن الكريم ، بيروت ، ص : ٤١٠ .

النفسية، حرارة ذاتية غلابة على طريق الفكرة ، وإيمان داخلي يخلق في الإنسان طاقة الإخلاص لها.. وهو من الوجهة الاجتماعية، الموقف التاريخي الذي تأخذه جماعة تغييرية ما، وبه تستجيب لمقتضيات الكفاح، من أجل رسالة معينة، وتنشط من أجل تحقيق مشروعها الاجتماعي .. وهو كذلك جو إنساني يتيح للجماعة بأن تتعلم قوانين العيش في جماعة حضارية .

## الربط الحضاري في الجهد النبوي

والنموذج النبوي في التغيير، يعطينا صورة عميقة لظاهرة الربط الحضاري، وخير دليل على صحة هذا الاعتقاد، هو تتبع بعض العينات العملية من حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام :

### المثال الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لكفار قريش، وهم يحاورونه في بعض قضايا الدين، وذلك باستعمال وسائلهم الخاصة التي تنتمي إلى الثقافة التقليدية :

(وما جئت بما جئت به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا أملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم بيني وبينكم) (١).

### المثال الثاني :

تأمل كذلك مقالة جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وهو يشرح مبادئ الإسلام حيث قال: ( فكننا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف

(١) السيرة النبوية ، ص : ٣٣٦ .



نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفاه، فدعانا إلى الله، لتوحيده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلوة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة... (١).

إن أول ملاحظة يمكن تسجيلها على المثالين، هي بداية ظهور منظومة جديدة من الأهداف، وبوادر ثقافة، مازالت في حيز القوة، ومعالم مشروع اجتماعي وليد، بدأ يسجل حضوره التاريخي، في عالم الآخرين، عن طريق نموذج الكوني، الذي انطلق في تلك اللحظات في صراع واسع النطاق مع الجاهلية القائمة بكل ألويتها القديمة .

فكلام النبي عليه الصلاة والسلام من جهة، يبرز لنا معالم النموذج التوحيدي، ويحدد مضامينه العامة، على الأقل في المرحلة الدعوية الأولى؛ ومن جهة أخرى يوضح لنا مهمته ﷺ في هذه المرحلة التاريخية، ثم يوضح لنا نتائج الاحتمالين الواردين: احتمال الرفض، واحتمال القبول، وجزاء كل واحد منهما.

أما كلام واحد من أصحابه الأوائل (مرتبط بالفكرة) فقد بين لنا العلامات البارزة على طريق المشروع الإسلامي الجديد، وحدد بعض أبعاده الاجتماعية، والتربوية، والسلوكية . كما قدم لنا تقريراً موجزاً، ووافياً عن شخصية الرسول ﷺ فيها بعض جوانب أخلاقه، وتاريخه .

إن هذه العينة مأخوذة عمداً من الفترة المكية، لكي تبرز لنا بعض القضايا

---

(١) المرجع نفسه ، ص : ٢٢٦ ، مع ملاحظة أن هذا القول فيه ضعف من ناحية المن ، لأن جعفر يتحدث هنا عن الزكاة ، وهي لم تكن قد شرعت بعد .

## المتعلقة بالتغيير في مراحل الانطلاقة .

فالمرتبون الجدد بالإسلام سيخضعون لعملية تربوية منهجية، من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا هو في الحقيقة العمل التاريخي الاول، الذي أنجزه ﷺ؛ حيث عمل على ربط الناس بالرؤية التوحيدية، وبالتالي « بالاهداف الحضارية الكبرى » للإسلام كبديل عن الاهداف الصغرى والبسيطة للجاهلية القديمة، بكل ما يحتاجه هذا العمل الحضاري الضخم من وسائل، ومناهج، وأساليب، تماشى وطبيعة الدين الجديد، حيث فكرة المشروع وغير المشروع من الأدوات، والسلوكات، والمواقف، واجبة المراعاة. وحيث ضرورة الانتقال بالدعوة من مرحلة إلى التي تليها، ومن مستوى البيت، والأسرة، والعشيرة، والقوم، والمجتمع الجاهلي القديم، إلى مستوى العالم أجمع، حيث كانت المنهجية الأخيرة في دعوة النبي ﷺ للحضارات القديمة جميعاً، وإعلان عالمية الحضارة الإسلامية واقعياً.

لقد سعى ﷺ عن طريق عمليات « الربط الحضاري » الأولى إلى بناء جماعة إسلامية قاعدية - « الصحابة » - على أساس النموذج الحضاري التوحيدي، تلك الجماعة التي ستكون قائدة البناء الحضاري الإسلامي الاول، والذائدة عن حمى الإسلام، ورسالته، ومشروعه. لقد كان جهد الرسول ﷺ منظماً، ومخططاً بواقعية، وعلمية، وتوازن. . يعمل بلا كلل ولا ملل، يحذوه الأمل المشرق، ويرافقه العزم والتصميم، والإرادة، والرغبة المتنامية، وتوجهه الإرادة الإلهية عن طريق رسالة الوحي الأعلى، الذي كان يتابع عن كسب أحداث الدعوة، ومراحل نموها لحظة لحظة، وموقفاً موقفاً، يتابعها في تفاصيلها الظاهرة والباطنة. .

## عمليات الربط وشبكة العلاقات الاجتماعية

مرحلة الربط الأولى، كانت حاسمة في حياة الدعوة باكملها، لدقتها وخطورتها، لأنها كانت تواجه الجاهلية في أعز ما تملك.. تواجهها في أصنامها وفي دنيها المطلقة. وهذه المواجهة باللغة الاجتماعية، تعني استقطاب عالم الأشخاص الذي كان ينتمي إلى المجتمع الجاهلي، وربطه بالمجتمع الإسلامي الوليد، وهذا الذي ظهر من خلال حركة النبي عليه الصلاة والسلام، من أجل بناء قاعدة بشرية، ترتبط باهداف الإسلام الحضارية، وتقتنع برسالة ومشروع هذه العقيدة الجديدة. فهذا العمل هو مخاطبة للعقول، ومحاوراة للأذهان، والثقافات، والتقاليد، والعادات، كيما تنتقل من طورها الجاهلي إلى طورها الإسلامي، وذلك عن طريق عمليات الربط الحضاري. وهذا فعلاً ما أنجز في فترة قصيرة حيث وجدنا جماعة، تشتمل ضمن صفوفها على مختلف شرائح المجتمع، وطبقاته، بما فيها: السيد والعبد، العالم والامي، الغني والفقير، الصبي والشيخ، التاجر والفلاح، الراعي والصانع، الطبيب والعسكري.. فكل هؤلاء - نساءً ورجالاً - أصبحوا موضوعات للدعوة، والربط الحضاري، فهم الذين كانوا بمثابة الزاد الذي غذى جنين الحضارة الإسلامية، وصنع تاريخها.

من هنا نستطيع أن نؤكد بأن الغاية الأساسية لعمليات الربط الحضاري، هي: بناء شبكة علاقات رسالية، يتواجد فيها: العالم، والمعلم، والمتعلم.. والداعي، والمفكر، والمثقف.. والصناعي، والزراعي، والحرفي... والجمهور المسلم الراعي، ويتحرك هؤلاء في تناسق، وتناغم، وانسجام من أجل تحقيق رسالتهم الحضارية، ذلك لأن (أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه، مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات، وعلى هذا الأساس نستطيع

أن نقرر : أن شبكة العلاقات، هي العمل التاريخي الأول، الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده (١).

## عمليات الربط وشبكة العلاقات النفسية

أما عندما ننظر إلى عمليات الربط من الوجهة النفسية، فإننا نجد لها عبارة عن جهود من أجل تحقيق غايتين في ذات الإنسان، هما :

– عملية إفراغ للعقول من الموارث الجامدة، والمعطلة، وإخلاء للقلوب من مس الشياطين، وهوس الملاعين!!

– عملية بناء للعقول بالقيم الحية، والأفكار السليمة، وتعمير للقلوب بالمبررات الدافعة، والشحنات الإيمانية القوية ..

وبعبارة أخرى: إفراغ الإنسان من كل المعطلات، والمشبطات الفكرية، والنفسية، والسلوكية، التي تعيق حركته الفاعلة في التاريخ، وتكبل نظم الطاقة الحيوية لديه، وتبددها خارج دوائر البناء الحضاري المستقيم على الطريقة .. وتزويده بالقيم، والمبررات الفاعلة التي تسلك بطاقته على طريق الخير، والعمل الصالح. وبعبارة أخرى: عمليات الربط على الصعيد النفسي، هي التي تخلق في ذات الإنسان جواً: ( يجد الفرد نفسه فيه متخلياً عن عدد من الانعكاسات المنافية للتنزعة الاجتماعية، ليكسب مكانها أخرى أكثر توافقاً مع الحياة الاجتماعية، وذلك هو تكييف الفرد .. فهو عملية تنحية، تجعل الفرد لا يعبا ببعض المثيرات ذات الطابع البدائي – كتلك الحمية التي كانت تعتري عرب الجاهلية، وتدفعهم إلى الأخذ بالثأر – وهو عملية انتقاء، وإحساس، تجعل الفرد قابلاً لمثيرات ذات طابع أكثر سمواً .. طابع أخلاقي، جمالي مثلاً (٢).

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٢ .

(١) ميلاد مجتمع ، ص : ٢٥ .

## مثال من السيرة النبوية

لنتتبع هذا المثال التوضيحي .. فجعفر بن أبي طالب، لما أجاب التجاشي، قال له:

– ( كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، وناكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار... ) فهذه هي مجموعة الموارث، المعطلة للطاقة البشرية .. ثم واصل كلمته قائلاً:

– ( فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه... ) وهذه هي مجموعة الأهداف، والمبررات الجديدة، التي تمثل مصدر الطاقة الحيوية الجديدة. ثم يضيف مؤكداً:

– ( فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل... ) .. فالدلالة واضحة هنا على تمام عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، وذلك على صعيد العينات الفردية، التي ستتحول فيما بعد إلى مجتمع حضاري هو «مجتمع المدينة».

قال تعالى:

﴿ وَالْفَّ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ لَوَأَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَبَيْتَ قُلُوبَهُمْ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الانفال : ٦٣).

إن التحول الذي أحدثه الرسول ﷺ في نفسية صحابته الكرام، هو الذي يفسر لنا فيما بعد، قدرة هذا المجتمع على «المراطة الحضارية»، والعطاء الإنساني الكبير، في مختلف حقول المعرفة البشرية ..

لقد مارس الرسول ﷺ عمليات الربط الحضاري، على مستويها: النفسي،

والاجتماعي، وحقق فيها أعلى مستويات الإتقان المنهجي والثقافي، وترك لنا نموذجاً لبناء حضاري عالمي شامخ، بمقدوره أن يقدم لنا « الهداية الحضارية » كلما استدعيناها بوعي، وفهمناه بعمق .

## العصر العالمي والربط الحضاري

إننا نريد اليوم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أن ننجز عملية تغييرية حضارية في مستوى القرآن الكريم، والسنة النبوية . ففي ظل قرن الحضارة العالمية، يُطرح سؤال مهم هو :

كيف نربط الناس بالإسلام، وبمشروعه الحضاري من جديد؟

وامام هذا التساؤل، فإننا مضطرين إلى تحديد صورة عامة، عن طبيعة عمليات الربط الحضاري، ومتطلباتها الأساسية، مرجعين منهجية الربط، وكيفيةاته، إلى حينه . فلكي تتم عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، نحن بحاجة إلى :

- السعي إلى بناء شبكة علاقات اجتماعية في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية القائمة، كمرحلة ضرورية على طريق بناء شبكة العلاقات الحضارية للامة من جديد، وذلك من خلال التحرك على مستوى : الإنسان، والمجتمع، والإنسانية .. والاستفادة من التعاطف العالمي مع الإسلام، من قبل من لم تسمح الحضارة الغربية فطرتهم الخيرة ..

- بناء وعي مستوعب على الواقع الاجتماعي الفردي، والجماعي المحلي، والعالمي، على اعتبار أن هذا الواقع سوف يخاطب بالاهداف الحضارية الكبرى للإسلام ..

- تشكيل وعي عميق على الرؤية التوحيدية، ومشروعها الحضاري البديل

وضوابطها الشرعية، ونواظمها الثقافية، والمعرفية، والأخلاقية، وضمناتها وعودها.

- امتلاك منهج للعمل التغييري الذي سوف يجدد الوسائل، والأولويات، والمراحل، والأوقات التي ينفذ فيها الفعل التغييري، كما تعرف فيه أساليب التغيير في مرحلة الربط الحضاري، ومنهجياته النظرية والعملية، وإجراءاته التربوية، والاستثنائية. فبدون منهج واضح المعالم، والخطوات، والأهداف، والسياسات، قد لاتصمد الحركة التغييرية أمام ابتلاءات الواقع العالمي الداهمة؟! .

وفي نفس الفصل التغييري سوف تكون الحركة التغييرية مطالبة بوضع مخططات، وبرامج للربط الحضاري على المستوى الفردي، والجماعي، والإنساني، وعلى الصعيدين المحلي والعالمي، والانطلاق الفعلي في طرح الرؤية الإسلامية، وعرضها على المجتمعات، وهنا تنشأ ضرورة التخصص في الفعل التغييري من خلال إنشاء المؤسسات التغييرية لعالم الربط الحضاري والتي منها:

- مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والضمنات، بالأسلوب الأمثل، الذي أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام «الجدل الأحسن» و«التييسير المخفف».. وهنا تعد المشاريع التربوية بالمفهوم الشمولي حتى تصبح تربية اجتماعية، تطول كل شرائح المجتمع، وفي كل مؤسساته المتنوعة، مع مراعاة توزيع الخريطة الثقافية، والجغرافية للناس، وقدراتهم، واستعداداتهم، كما أشرنا في البداية، فالعامية موضوع، والجماهير موضوع، والمثقفون موضوع، والمفكرون موضوع، والمهنيون موضوع، والسياسيون موضوع، والتجار والأغنياء موضوع.. إلخ، وكل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى فهم معادلته، والأسلوب الأمثل في التعامل مع قضاياها، ومتطلباته.

- مؤسسات ممارسة الدعوة، وتخريج الدعاة الربانيين، وإنتاج منهجيات

البلاغ المبين.

- مؤسسات توزيع، ونشر الأفكار، وتبادل الخبرات .  
- مؤسسات المتابعة، والمراقبة، والتقويم المتنامي للأشخاص، والأشياء، والأفكار .

- مؤسسات تنمية الإمكان المادي، والوسائلي، والخبرات الاستخدمية للأدوات .

كما أن كل مؤسسة من هذه المؤسسات وغيرها، تقتضي تفرعات، وتخصصات، فمثلاً في مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والرسالة نحتاج إلى:

- قسم التوجيه وإنتاج المنهجيات الدعوية .  
- قسم التوجيه المعرفي الفكري للعلوم الاجتماعية، والسلوكية ، والكونية عموماً .

- قسم تصنيف احتياجات الدعوة على صعيد الأفراد، والأسر، والجماعات، والدول، والمجتمعات، والأمم، والإنسانية ..

- قسم هندسة عالم الأشخاص، وتسيير الجهاز البشري للحركة التغييرية، بعيداً عن منطق الإدارات، والبيروقراطيات المريضة، بل في إدارات أخرى هي إدارات الجرح والتعديل، وعلم الرجال .. إلخ .

- قسم توجيه طاقات الحركة التغييرية البشرية، ونشرها داخل البناء الاجتماعي .

- قسم متابعة الحركة التربوية، والتكوينية للمرتبطين بالرسالة، والإجابة عن تساؤلاتهم، وتنمية صلاتهم بالفكرة .

هكذا إذن تتعقد العملية التغييرية، وتتعدد العمليات في مفصل الربط الحضاري، كلما تطور العقل البشري، ونما نضجه الفكري، والنفسي؛ وكلما تحسن النمو العقلي والنفسي للناس، كلما حقق الإسلام مقاصده المنشودة، لأن



الإسلام يحب العمل تحت سيادة منطق الحوار، والإقناع، والجدل الحسن، ويمج منطق الترييف، والغموض، والقهر.

فالتغيير الحضاري لم يعد مجرد تكديس للأعمال والبشر، بل أصبح هندسة حضارية عالية للمجتمع، وطاقاته، تتطلب المزيد من الوعي والفهم والخبرة.

## ثانياً : المنهج النبوي وعالم التثقيف الحضاري

إن الحركة التغييرية وهي تتفاعل مع مشكلات الواقع، وهمومه، سوف تضطر إلى استيعاب متطلبات المجتمع، والسماع لخطابه، وحاجاته التي يرفع صوتها الناس من كل توجه، وتيار، وحزب. فمن الناس، مَنْ مشكلاتهم عقلية، ومنهم من مشكلاتهم نفسية، أو أخلاقية، أو تربوية، ومنهم من مشكلاتهم معاشية أو مادية، ومنهم من مشكلاتهم عصبية أو قبلية.. ومنهم من يطالب بسيادة منطق الفوضى، ومنهم الحاقدون، والمغرضون.. ومنهم من يجادل على صعيد الفكر والعلم، ومنهم المجادل على صعيد المنهج، والمشروع.. ومنهم من يطالب بالبدائل، ومنهم من يطالب بالمعجزات الخارقة، ومنهم من يريد الخير للإسلام، ولكن أسلوبه يسيء إلى الإسلام، ومنهم من يريد الشر للإسلام ولكن يخدمه من حيث لا يعلم.. والخلاصة هي: أن في المجتمع حياة، وديناميكية، وخير، وشر. والحركة التغييرية الحية، هي التي تفهم حركة المجتمع، وتسعى إلى معرفة همومه، واحتياجاته في كل لحظة، وأن، كيما تتمكن من استيعابه، وتقديم الخير له بدون إكراه، ولا تكليف بما لا يطاق.

كما أن الحركة التغييرية سوف تواجه من قبل عالم أشخاصها، وما يطرحه من تناقضات، وأمراض، وظروف متعلقة بثقافات الناس القديمة، تلك التي

ستدخل إلى الحركة التغييرية، عن طريق العمليات الجارية في مفصل الربط الحضاري. ولكي تستجيب الحركة التغييرية بوعي، لكل هذه المتطلبات وغيرها، مما يعرفه أصحاب القضية، فهي مضطرة منهجياً إلى فتح المفصل الثاني، من مفاصل التغيير، وهو مفصل «التثقيف الحضاري».

## مفهوم التثقيف الحضاري

إنه بمثابة المرحلة الوسيطة التي تتخصب فيها المشاريع، وتنمو فيها الخبرة باستمرار، وتتوجه نحو الواقع رويداً رويداً، وذلك بعد أن تتم عملية بناء المشروع التغييرية، على الصعيد النظري، أي مستوى النفوس، والعقول، التي سوف تمارس عليها عمليات التثقيف، التي ستؤهلها للعيش في ظل ظروف الواقع المعيش، وفيها كذلك تعد مناهج تطبيق مشروع الإصلاح الاجتماعي.

إنها مرحلة حاسمة حقاً، لأنها هي التي تصل الوعي النظري بالوعي الواقعي، وتربط بين المبادئ النظرية، والمؤسسات الميدانية، وتؤلف بين الرؤية الكونية ومشروعها العملي، وبين إنسان النظرية الذي يكون في مؤسسات الربط الحضاري، وبين إنسان التطبيق الميداني، الذي يباشر عمليات الإنجاز. فهي مرحلة لازمة لاكتمال نمو الأفكار، ونضج الطروحات، وترسيخ القيم والمبادئ، وتجنيد الاقتناع بالرسالة وبمشروعها.

فهي الجسر الذي يربط بين عالم ظهور الفكرة، وبداية ارتباط الناس بها، وعالم تجسيدها، وبنائها الموضوعي، وبين أزمة ما قبل الربط الحضاري، التي يعيشها الإنسان والمجتمع، وعالم ما بعد التثقيف الحضاري، الذي يصير فيه الإنسان والمجتمع على استعداد تام، ليعيشا في ظل الواقع الذي قاما لإنجازه.

وبعبارة أخرى: إنها مرحلة تعمير العقول، وتنوير القلوب، وتركيب النفوس،

واكتساب القدرة على البناء، والعلاج لمشكلات المجتمع، وصياغة المناهج الكفيلة بتقديم البدائل العملية للواقع المتنازم . والتثقيف الحضاري للإنسان، وعملية تكوين الخبرات، تحتاج إلى شروط، وموجبات، ومنهجيات، ومؤسسات، تماماً كما كان الحال في مفصل الربط الحضاري .

## المنهج النبوي والتثقيف الحضاري

النموذج النبوي يعطينا صورة حية عن هذا المفصل، من مفاصل التغيير، وهذا ما تدل عليه توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام، المتعلقة بحثه على العلم، والتجربة الواقعية، والتفقه في دين الله، وكذلك في عملياته التربوية التي ثقف بها المجتمع الإسلامي الأول، وساعد الإنسان ليفهم بعمق رسالته، ومشروعه، والبدايل التي يجب تقديمها، لحل أزمت مجتمعه . ومن الأهمية بمكان أن نثبت هنا بعض النماذج من حياته ﷺ وحياته صحابته الكرام، كمنتوج لعمليات التثقيف التي مارسها في مراحل الدعوة الأولى .

### النموذج الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب، عندما قدم له مقترحات قريش لإغرائه، وصرفه عن دعوته حيث قال : ( يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته )<sup>(١)</sup> .

في هذا النموذج الرائع، لم يترك النبي عليه الصلاة والسلام، أي مجال للشك في ارتباطه الوثيق، وإيمانه الجازم، بالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام .

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٢٦ ، وهو ضعيف ( الضعيفة ، ١٠٩٠ ) ، وقد ثبت بسند حسن بلفظ : « ما أنا بقدر على أن تستعملوا لي منها شملة » - يعني الشمس - انظر الصحيحة (٩٢) .

فقد وضع عليه الصلاة والسلام وعيه، بين حدي العمل المنتج، وهما أن يظهر الله هذا الدين، أو يهلك دونه، وهذا فهم عميق لرسالة الإسلام، وقدرة كبيرة على توجيه المشكلات، وحل المعضلات، لصالح مسار الدعوة الاصيل، فهو هنا لم يقدم فقط موقفاً رافضاً لما هو مطروح عليه من استفسارات، بل وضع منهجاً في التعامل مع المشكلات، التي تتصل بقضية الاعتقاد، والإيمان بالافكار، والتعامل مع أعدائها المغرضين.

فالتبني عليه الصلاة والسلام، قد نفذ بوعيه، وإدراكه للفكرة التوحيدية، من مجال الوعي البشري العادي، إلى مجال الوعي المتسامي، والمتجه نحو المولى تبارك وتعالى، ليتحرك في الواقع بنور الله، وهدايته.

### النموذج الثاني :

انظر إلى موقف أبي بكر رضي الله تعالى عنه، من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لحقهم أذى المجتمع الجاهلي، عندما قال له والده أبو قحافة :

( يا بني إني أراك؛ تمتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك ما فعلت، أعتقت رجالاً جلدأ يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر : يا أبت إني، إنما أريد ما أريد الله عز وجل )<sup>(١)</sup>.

إن هذا الموقف من الخليفة الإسلامي الاول، فيما بعد، يعبر عن وعي بصير على الأهداف الحضارية الكبرى للأمة، ولنموذجها التوحيدي، رغم أن هذا الموقف كان في المرحلة الاولى للدعوة .. فعلى الرغم من معقولية كلام والده وخاصة في المنطق القديم لكن جوابه كان واضحاً وحاسماً، لأنه يعرف بأن هؤلاء الضعفاء هم إسمنت البناء الحضاري .. وهذا الموقف هو الذي صدقه التاريخ الإسلامي فيما بعد .

(١) المرجع نفسه . ص : ٦٦ .

### النموذج الثالث :

ويعبر عن الوعي التثقيفي، والتربوي العميق لدى النبي عليه الصلاة والسلام، وتحكمه الجيد في حركة التوعية على منهجية العمل الإسلامي، وفهمه لمراحلها، ومتطلباتها. ففي إطار التدريب التربوي لأصحابه، رأى (رسول الله ﷺ) ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانة من الله ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه<sup>(١)</sup>.

### النموذج الرابع :

في هذا النموذج يرسم لنا النبي عليه الصلاة والسلام منهجاً أصيلاً من مناهج الدعوات، وذلك باستخدامه منهج السير في الأرض، والنظر في سُنن الذين خلوا، من أجل تثقيف أصحابه على منهج البناء الحضاري. فعن خباب بن الارت رضي الله تعالى عنه، أنه قال :

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه، ما يصدده ذلك عن دينه.. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)<sup>(٢)</sup>.

إن هذا الوعي البصير، هو الذي حافظ على حركة التغيير الإسلامي، ومكنها من المواجهة، والمراجعة الناجحة، والنمو الإيجابي، الخاضع لسُنن الله في

(١) المرجع نفسه، ص: ٢٢١.

(٢) رواه البخاري.

الخلق .. ومن المهم هنا أن نعرف أمرين أساسيين :

**الأول :** ( أن الرسول صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم، كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي، ولا تأديب تعليمي؛ وإنما هي أحكام الدين، وآدابه المتلقاة نقلاً، ياخذون أنفسهم بها، بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق)<sup>(١)</sup>.

**ثانياً :** ومن هنا، فإن عمليات الربط الحضاري، والثقيف الحضاري، كانتا متلازمتين في النموذج التغييري النبوي؛ وهذا ما انتبه إليه مالك بن نبي رحمه الله بذكاء حيث قال :

(إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بالتحديد مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية)<sup>(٢)</sup>.

## الثقيف الحضاري والعصر العالمي

فكما أشرنا في موضوع الربط الحضاري، أنه يقتضي وعياً على التطورات الراهنة للبشرية، فإن نفس الشيء يستدعيه فهم مفصل الثقيف الحضاري.. ولكي نفهم النموذج التغييري الإسلامي، في :

– رؤيته، ورسالته، ومشروعه ،

– ومنهج تطبيقه ،

– ومنهج المحافظة عليه ،

(١) المقدمة ، ص : ٤٨١ .

(٢) شروط النهضة ، ص : ٨١ .

- ومنهج توريثه للأجيال ،
- وفي منهج استمراره وتواصله ،
- علينا أن نعي بأن هذا المفصل بحاجة إلى شروط، ومنهجيات، ووسائل،  
وأدوات، نذكر منها ضرورات قيام مؤسسات، من أجل :
- استقبال منتجات عالم الربط، من أفكار، وأشياء، وأشخاص،  
وتساؤلات، ومشكلات تحتاج إلى حلول.
- تأهيل الأفراد في مجال الوعي بالمشروع الاجتماعي، والبدل الإسلامي .
- تكوين الإنسان منهجياً، ومعرفياً، وروحياً، وسلوكياً، وتأهيله ليتطابق مع  
نموذجه .
- تشكيل القدرات الإنجازية لدى الأفراد ، والجماعات .
- الصياغة المشروعية، والتنفيذية لنظم النموذج الإسلامي، القانونية،  
والتشريعية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية .. إلخ .
- ولكي تقوم مؤسسات التثقيف بهذه الوظائف وغيرها، فهي بحاجة إلى  
مايلي :
- إنشاء مؤسسات للفكر، والمعرفة، تقوم بإعداد مشاريع، ومنهجيات التثقيف .
- إنشاء مؤسسات للاتصال بين عالم الربط الحضاري، وعالم التثقيف  
الحضاري، بغرض مفصلة العمل التغييرى، وربطه ببعضه بعضاً، في وحدة  
عضوية متكاملة .
- مؤسسات التوجيه، والتقوم؛
- مؤسسات توزيع ونشر المشاريع، والمخططات، وتطبيقها على الأفراد  
والجماعات .
- مؤسسات استثمار الأفكار، والأشخاص، وتوليد الطاقة الحيوية، والبدائل  
الضرورية .

من هنا تظهر لنا أهمية هذا المفصل التغييري، كمرحلة وسيطة لازمة، تعود إليها الكلمة في نجاح المشاريع أو فشلها، وفي تزويد حركة التغيير بالأفكار، والمناهج في كل أطوارها السابقة واللاحقة، كما سلاحظ بعد قليل، إن شاء الله .

### ثالثاً : المنهج النبوي وعالم البناء الحضاري

هل يمكننا القول : بان العملية التغيرية قد اكتملت، إذا توفر الشرطان السابقان، وهما :

- طرح المذهبية التوحيدية على المجتمع، ومحاولة ربط الناس بها؛
- تثقيف الناس على مشروعها الاجتماعي؟

في الحقيقة، يعتبر الشرطان السابقان، من الركائز الأساسية في أي عملية تغييرية، مهما كانت طبيعتها « مادية أو أخلاقية »، ولكنهما غير كافيين مالم ينزلا إلى أرض الواقع، كتشريعات، وسلوكيات، ومواقف يومية، تجسد المضمون الاجتماعي، للرسالة المتبناة. إذ يعتبر الواقع، في هذه الحالة بمثابة التحدي الحقيقي الذي يواجه عمليات الربط، والتثقيف. ففيه تتأكد المصادقية الاجتماعية للفكرة، ولمشروعها، وتتأكد فيه الاستقامة، والصواب، والعاقبة.

وعلى هذا الأساس، تضطر الحركة التغيرية، وقيادتها، إلى الانتقال إلى المفصل الثالث من مفاصل التغيير في إطار الأطراد العام للعملية التغيرية باكملها، وهو مفصل « البناء الحضاري ». وفيه تنزع الحركة إلى الواقع، وساحاته المتنوعة، لتُطبق مضامينها، وتنظر لحركة المجتمع اليومية، وتقدم الأفكار العملية .. فهي مرحلة إرساء مؤسسات الميدان المتعلقة بـ :

- توفير شروط العبادة؛



- وشروط الإعمار، والانتشار في الأرض؛

- وشروط الإنقاذ للناس من الظلمات إلى النور؛

- والتعارف بين الثقافات والمجتمعات، على أساس نظرية «التقوى».

ففي هذه المرحلة، تبني قدرة الحركة الادائية، والعملية . فبعد إن كانت في عالمي الربط، والتثقيف، قدرة نظرية، تصبح في هذا المفصل، قدرة عملية، فهي مرحلة «الوعي الواقعي البناء»، والتفاعل مع سنن الله في الذكر، والانس، والكون، واقعياً، استجابة للرؤية التوحيدية، بغرض تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتثبيت، وحفظ حقوق الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، والكون.

فهو نقل للنظرية الحضارية، ومشروعها، إلى أرض الواقع، وتحويل الوعي إلى قيم سلوكية، ومواقف ميدانية منظمة، تدخل في اطراد تسيير المجتمع.

## جهد النبي والبناء الحضاري

ففي سياق تتبع النموذج التغييري النبوي، نجد أنه قد مر بمفاصل التغيير الثلاثة:

- مفصل الربط الحضاري.

- مفصل التثقيف الحضاري.

- مفصل البناء الحضاري..

فمن الوجهة التاريخية، نجد أن مفصل الربط الحضاري، قد امتد خلال الفترة المكية، مع التنبيه إلى ذلك التلازم الرائع، بينه وبين مفصل التثقيف الحضاري، كما أشرنا سابقاً.. أما مفصل البناء الحضاري، فقد أعقب هاتين المرحلتين مباشرة، حيث انطلق واقعياً من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، مهد الحضارة الإسلامية الأولى، وفيها بدأ في الترتيبات العملية لبناء المجتمع

الإسلامي، وترسيم معالمه، وحدوده السياسية والجغرافية، وتشكيل مؤسساته الدينية والاقتصادية، والدعوة، والجهادية.

ثم تحرك النبي بعد عملية الترسيم الأولى، إلى إكمال عمليات الربط والتثقيف والبناء، في مستويات أخرى من العملية التغييرية، وفي ساحات جغرافية، وثقافية أخرى، حيث الدوائر المحلية، والدولية، والعالمية. وفي هذه المراحل بالذات انخرط الصحابة الكرام في عملية بناء واسعة النطاق، طالت كل العالم الإسلامي القديم، الذي وصله الدين الحق، عن طريق الدعاة الفاتحين.

## البناء الحضاري والعصر العالمي

إن طبيعة البناء الحضاري أصبحت اليوم، ونحن على مشارف العصر العالمي، معقدة للغاية. ولذا فحاجتها ماسة جداً إلى الفعل المنهجي المنظم، وإلى الوسيلة الكفائة، والمناسبة، والمشروعة، وإلى الأسلوب الأمثل والفعال. فهذه المرحلة التغييرية موجباتها، وشروطها، ووسائلها، ومنهجياتها. ومن بين وظائفها الأساسية:

– استقبال منتجات مفصلي الربط والتثقيف من أشخاص، وأشياء، وأفكار

ثم تزويد هذه المفاصل بما تحتاجه من متطلبات، ولوازم؛

– بناء مؤسسات توجيه طاقات الأفراد، والجماعات، ومساعدتها على

ممارسة أدوارها الاجتماعية.

– بناء مؤسسات لحماية المنجزات، والمحافظة على الحركة التغييرية، وخطها

الفكري الأصيل.

– بناء مؤسسات الربط بين أجيال المجتمع، وتوريث الرسالة والمشروع، من

خلال إرساء مناهج الاستمرار الحضاري.

## المنهج النبوي وبناء إنسان الاستخلاف

إننا عندما نتأمل الجهد النبوي، نجد أنه فعلاً انصب حول بناء هذا الإنسان النموذجي بمختلف صورته .. حيث وجدنا الرسول ﷺ وفر الجوامع الملائم لبناء الإنسان الخليفة، والداعية، والعالم، والمبليغ، والعسكري، والسياسي، والمجاهد، والقاضي، والتاجر، والفيلسوف، والمترجم، والطبيب، والمالي، والجمهور المسلم الواعي، الذي يدافع عن الإسلام، ويذود عنه في ساعات الخطر الداهم، كما كان الحال في حروب الردة، وفي الهجمة التنارية على العالم الإسلامي. وهذا الإنسان المنسجم مع الخطاب الإلهي، هو الذي بنى المجتمع الإسلامي العادل .. وشيد ثقافته الحضارية التوحيدية ..

إن إنسان الاستخلاف هو الإنسان، الذي يتطابق مع الخطاب الإلهي، ويستجيب لنداء الإسلام، ويمارس وظائفه الأساسية في : العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، ويسمى دوماً إلى إيجاد الشروط التي تاهله لتقديم الإسلام للناس، وتوفير الوسط الذي تعيش فيه تعاليمه، وتشريعاته، وتسمو فيه ذات الإنسان، وتتصارع فيه الحسنة مع السيئة، فتغلبها الحسنة.

إن إنسان الاستخلاف الذي شاده النبي عليه الصلاة والسلام، هو من هذا الطراز الذي دفع بمشروع الإسلام إلى عالم الحضارة، حيث رابط هذا المجتمع في التاريخ أكثر من عشرة قرون كاملة .. ساهم خلالها في إثراء مسيرة الإنسانية بالعلم، والمنجزات الحضارية المتنوعة، التي ساعدت في وقت لاحق، الكثير من الأمم لتعيد بناء ذاتها الحضارية، مثل الأمة المسيحية.

فإنسان الاستخلاف هو الذي دفع بالمجتمع الإسلامي الوليد إلى عالم «الابتغاء الحضاري»، وعندما توقفت رسالة هذا الإنسان، ولم تستطع الأجيال

المتعاقبة تجديد العهد بهذه النوعية من البشرية الراقية، نزل المجتمع إلى مستوى دون المستوى الاول.. وتغير الإنسان غير الإنسان الاول، وجاء «إنسان التولي الحضاري»، الذي فتح عهد «التخلف الحضاري» في المجتمع الإسلامي.

## إنسان المنهج النبوي

إن المنهج النبوي وهو يتحرك لبناء المشروع القرآني، انطلاقاً من بناء الإنسان، يضع في اعتباره نموذج هذا الإنسان، الذي يفترض فيه التاهل لحمل أعباء الاستخلاف في الأرض.

فإنسان السنة النبوية، مسؤول في كل ساحة يتواجد فيها (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)<sup>(١)</sup> ومجد في النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، طبقاً لسنن الدعوات، وقوانين البلاغ المبين: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)<sup>(٢)</sup> ومتق لله سبحانه وتعالى في كل موقع، ومخالق للناس بخلق حسن: (اتق الله حيثما كنت، واتبع الحسنة السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)<sup>(٣)</sup>.

فهو الساعي في الأرض، والضارب في مناكبها باحثاً عن رزقه، وقوته. تجده هناك في ساحات الحضارة، يحتطب من قيمها، وأخلاقها، وعلومها ومدنيتها، ومعاشها: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعهها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه)<sup>(٤)</sup>... (أطيب ما أكل الرجل، من كسبه)<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة .

(٣) رواه أحمد والحاكم والبيهقي والترمذي .

(٤) رواه البخاري .

(٥) رواه النسائي (مصحيح النسائي) .

وهو الكيس، الفطن، الذكي، والمتحرز الحذر، المنتبه: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)<sup>(١)</sup> وليس بماكر، خداع، وغشاش، غير مؤتمن: (من غشنا فليس منا)<sup>(٢)</sup>.

نزاع إلى الادب، والخلق الحسن، والجمال: (إن الله جميل يحب الجمال)<sup>(٣)</sup>.

والمسلم يمثل مع إخوانه وحدة عضوية متماسكة، وبناءً منسجماً مرصوفاً: (المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكت عينه اشتكى كله)<sup>(٤)</sup> فهم كلهم متعاونون، ومتراحمون، لا يحبون الظلم، ويفرجون كرب بعضهم بعضاً: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه.. من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة)<sup>(٥)</sup> كما أنهم متحابون: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)<sup>(٦)</sup> وجارهم محفوظة حقوقه، ومحترمة محارمه: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن.. قيل: ومن يارسل الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه)<sup>(٧)</sup> وجماعتهم لا تجتمع على الضلالة والظلم: (ما كان الله ليجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً)<sup>(٨)</sup> ولا يتخلفون عن المشورة إذا استدعتها الظروف.. ويجاهدون في سبيل الله: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)<sup>(٩)</sup>.

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) رواه البخاري .

(٧) رواه البخاري .

(٨) رواه الحاكم .

(٩) رواه أبو داود ( صحيح أبي داود ) .

وإنسان الاستخلاف كذلك، متوازن في حياته، يربط بين الدنيا والآخرة، ويعرف وظيفة، وموقع كل واحدة في حياته ووجوده.

## نموذج لإنسان الاستخلاف

لنأخذ نموذجاً من النماذج البشرية، التي أخرجتها مؤسسات البناء الحضاري التي كان يشرف عليها النبي عليه الصلاة والسلام.. ولغرض التحليل، سوف نختار نموذجاً يصور لنا العملية التغييرية النبوية في مفاصلها الثلاثة:

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

«أرسل سعد قبل القادسية، ربيعي بن عامر رسولاً إلى رستم، قائد الجيوش الفارسية، وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالتمارق المذهبة، وزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللالي الثمينية، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الامتعة الثمينية، وقد جلس على سرير من ذهب.. ودخل ربيعي بثياب صفيقة، وسيف، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل يركبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل، وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، ودرعه، وبيضة على رأسه.. فقالوا له: ضع سلاحك؛ فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت.. فقال رستم: إئذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق التمارق، فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء، من عبادة العباد، إلى عبادة الله؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فارسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نقضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات

على قتال من أبى، والظفر لمن يبقى.. فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم؟ فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم كما أحب إليكم، يوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكتب أهل رأينا، رؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث بعد الأجل، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.. فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أذنهم على أعلامهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز، وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب؟ أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة، وإن العرب يستخفون بالثياب والماكل، ويصونون الأحساب<sup>(١)</sup>.

لنتأمل بعمق هذا الكلام الرسالي، الذي لا يكف عن إعطاء السائرين في الكون بمعالم زاد المسير، لنحلل بعض جوانبه. إن هذا الإنسان الجديد، هو منتج من منتجات المدرسة التغييرية النبوية، كما أنه يقدم لنا صورة لجندي بسيط في مؤسسات البناء الحضاري، وهو يؤدي واجبه اليومي في سياق تبليغ الإسلام للناس. إن هذا الإنسان يحمل في ذاته (المبررات الكونية للإسلام)، وهو يتحرك بقوة الروح، والعزيمة التي منحته أياها قيم هذا الدين وتعاليمه، وضمائنه، ليحقق أهدافه في هذه الحياة والمثثلة في: العبادة والإعمار، والإنقاذ، والتعارف - كما رأينا سابقاً.

عندما نتأمل موقع هذا الإنسان، وهو يمارس مهامه، وفي تلك اللحظة التي يقف فيها أمام رستم، ماذا نستنتج؟

الأمر الأول الذي نلاحظه، هو أن هذا الإنسان، قد أنهى تكوينه الحضاري

(١) البداية والنهاية، العافظ ابن كثير، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، السنة: ١٤٩٤هـ - ١٩٨٣م، ج ٧، ص: ٤٠.

القاعدي، بمعنى أنه قد تخرج من :

- مؤسسات الربط الحضاري، بالرؤية والرسالة الإسلامية، حيث وعى أهدافه، واقتنع بها.. فهو في حالة ارتباط قوي برسالته، التي تتمثل في مشروع الإسلام عموماً؛

- مؤسسات الوعي الحضاري للمشروع، فهو يتمتع بفقهِ محيط لاهداف الإسلام، وقيمه.

- ومؤسسات البناء الحضاري، والانخراط في الإنجاز للمشروع.

ونستدل على المفصل الأول من التكوين من خلال قوله :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..» فهو مؤمن بهذه المنظومة الجديدة من الأهداف، ومجاهد من أجل تبليغها للناس، كما نلاحظ بأنه تجاوز مفصل الوعي، وبقوة عجيبة، فرغم أنه كان في موقف زينت له فيه الدنيا، وأعدت خصيصاً لإغرائه، وإذها له، ولكن على العكس أذهلها، وأذهل أصحابها. فقد استحقر كل ذلك العالم، من الأشياء الماثلة أمام عينه، ففي هذه اللحظة الجمالية الحضارية، أعطى موقفه التاريخي الخالد، وبرهن على ارتباطه بأهدافه، ورسالته، ووعيه العميق لها، وأبان مدى مسؤولياته الكبيرة، التي تفرض عليه أن يؤدي واجبه، كممثل حضارة، لا كمجرد مبعوث من قبل قائد إسلامي، هو نفسه طراز آخر من النماذج الاستخلافية. فهو يعيش في موقف فرض عليه أن يلخص فيه رسالة الإسلام في كلمات واضحة، ومفهومة، بعيدة عن التكهن، والتفلسف، والخلط. كما فعل جعفر من قبله بسنوات في أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة وهو يخاطب النجاشي، ولنا أن نقارن المواقف لتتعرف على مدى التطابق الذي يعبر على نفس النموذج، الذي أخرجته المدرسة التغييرية النبوية، مع مراعاة الفارق الزمني.. فجعفر كان في العهد المكّي، ورعي



كان في العهد المدني . لقد عبر رباعي - رحمه الله - عن تطبيق عالم مادي، لم تعد تسري فيه روح الحياة، ولم يعد له مفعوله القديم على النفوس الجديدة، وارتبط بعالم غيبي، يمدّه بمبررات أكثر إنسانية، وفعالية، وفطرية . كما وضعه أمام ضمانات عظيمة، لا يمكن تقديرها وفق المقاييس المتعارف عليها في عالم الناس، حيث أصبح لعالم الأشياء مفهوم آخر، أدمجه في منظومة تحقيق أهداف إنسانية، تخدم مصالح الإنسان في عالمه الحاضر، وعالمه الآخر .

ورباعي في الحقيقة، وفي ذلك الظرف، كان في المراحل المتقدمة للبناء الحضاري، للنموذج الإسلامي الاجتماعي، وبالضبط كان يمارس عملية (الإنقاذ) التي هي الهدف الثالث في منظومة الأهداف الحضارية الكبرى للإسلام . وهذا واضح في قوله «... ابتعثنا الله لنخرج...» .. وكان كل كلامه نابع عن قناعة تامة بما يقول، ويفعل، وكانت الضمانات التي تبرر له سلوكه، وتملا عقله، ونفسه، وباطنه، حتى أصبحت تشع بالخير في الخارج، ويتضح ذلك من قوله «.. الجنة لمن مات على قتال من أبي، والظفر لمن بقي..» وهذا الاستحضار، ليس من باب (المنتاج السياسي)، الذي أفته المجتمعات القديمة، ولكن من باب التوافق مع سنن الله في الذكر، والأنفس، والكون .. السنن التي دفعته ليقول، وهو يجيب عن طلب رستم: «.. ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل...» .. لقد حدد المصير بدقة، وعن علم، ودراية ..

فموقفه سنني، لأنه قد وفر في تلك اللحظات شروط (سنة الإعداد) سواء الروحي، أو المعنوي، أو العملي، أو المادي، فهو قادر على أن يحقق عملية الإنقاذ، بتوفيق من الله، وتثبيتته، ونصرته ..

ثم قدم لنا فصلاً كاملاً من فصول التغيير الحضاري، في معرض إجابته عن تساؤل رستم: «أسيدهم أنت؟ فقال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أديانهم على أعلاهم...» إنه يتحدث عن شبكة العلاقات الاجتماعية، في أحسن ظروفها وانسجامها.. وفي خلاصة الكلام، يأتي رستم ليحكم على هذه النوعية البشرية الراقية، التي تغيرت معالم نفسياتها، وعقليتها، فتغيرت معها الكلمة، والسيرة، واللهجة، والهدف، والضمانة.. فقال: «..ويلكم لاتنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة..» وكان رستم في تلك اللحظة أدرك جوهر التحول، وأصل التغيير، وأحس بأنه يتحدث مع نموذج بشري آخر، لم يعهده من قبل، في حياة الأمم السابقة. هذا النموذج الذي قال عنه خالد بن الوليد الصحابي الجليل المؤمن، والعسكري المحنك المظفر، والجندي الطائع عندما بعث لولاية كسرى على ألوية العراق:

« وإلا فوالذي لا إله غيره لا بعثن إليكم قوماً، يحبون الموت، كما تحبون الحياة...» إن التغيير لما في النفس، هو الذي أنتج هذه النماذج الاستخلافية العالية، وإنه لتحول يعبر عن عظمة الإسلام، ورسالته، وأهدافه، وضمائنه ووعوده، وعن التربية النبوية المستقيمة على الطريقة، والمتطابقة مع سنن الله المنتشرة في الذكر، والأنفس، والكون. وعلى هذا الأساس، نستطيع أن نؤكد على أن التغيير الأصيل، هو الذي يكون موجهاً إلى تغيير النفس الإنسانية، أي رفع قدراتها الفهمية، والروحية، والعملية، التي تؤهلها لفهم عقيدتها وأهدافها، ورسالتها، واستيعابها لسنن الله العاملة في الذكر، والأنفس، والكون، لأن هذا التغيير يتبعه آلياً التغيير في الكلام، والعمل، والموقف. وعليه فالحركة التغييرية مالم تستهدف بالتغيير الإنسان في ذهنه، وقلبه، وجوارحه، فإنها ليست أصيلة.. والحركة الأصيلة كالتي غيرت ربيعي، هي التي تستطيع النفاذ إلى أقطار

النفس، وتستهدفها بالإفراغ من الاسقام، والملء بالخير، تبعاً لسنن الربط الحضاري..

لقد تخرجت أمثال هذه النماذج تحت الرعاية الخاصة للرسول ﷺ وفي الورشات الإسلامية للبناء الحضاري، المختصة في بناء القدرات الفهمية، والقدرات الروحية، والقدرات العملية، والقدرات الجهادية، والإعمارية، والإنقاذية.

ومن الوجهة التاريخية العامة، نلاحظ بأن العمليات الأولى لبناء (إنسان الاستخلاف)، هي المقدمة الأساسية لبناء (مجتمع الاستخلاف)، و(ثقافة الاستخلاف)، كقوى حضارية كبرى، بإمكانها تغيير مسيرة الإنسانية نحو الأفضل، بتوفيق من الله عز وجل.. وعندما يبنى الإنسان، ويرتفع إلى مستوى الاستخلاف، فذلك دليل على اجتيازه المرحلة التي يكون فيها في «مؤسسات بناء المبررات الحضارية» وبالتحديد قد اجتاز العوامل الثلاثة للتغيير الحضاري، أي:

- الربط الحضاري، وتكون المبررات في مرحلة التشكل وفي تمام مستمر.

- والتفقيه الحضاري، وتكون المبررات في أعلى مستوياتها ودافعة للنشاط داخل النفس.

- وعالم البناء الحضاري، وتكون المبررات دافعة للنشاط داخل الواقع الاجتماعي، المعطل بكل تحدياته، وصعوباته، ويكون الإنسان، والمجتمع، والثقافة في حالة حركة مستمرة..

## خاتمة

الحمد لله الذي وفقني لهذا، وأمدني من العون ما مكنتني من إنجاز هذا العمل المتواضع، الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم، راجياً من المولى تبارك وتعالى أن يعيننا جميعاً على الاستفادة منه، وذلك بتقبل النصائح والتوجيهات، واستقبال الانتقادات، والتصويبات، وقلوب شجاعة، وعقول نيرة، ونفوس على الحق صابرة، وفي سبيله ماضية، ومن أجله مضحية. فما أرجوه من قارئ هذا الكتاب هو أن يدلني على الخطأ إن اكتشفه، ويصبرني على العيب إذا لمح، ويوجهني إلى الصواب، كلما رأني ملت عنه، وأخذت مسلكاً غيره، وحدت عن طريق الحق، وتنكبت عن العلم الذي ينفع الأمة، ويسدّد خطاها، ويعينها على استعادة عافيتها، حتى تعود لاداء دورها في العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف كما أمر المولى تبارك وتعالى.

إن القارئ الكريم سيلاحظ أفكار هذا الكتاب المتنوعة، وسيكتشف أن بعضها لم يتضح بالشكل المستوفي للشروط، وأن بعضها ينقصه العمق، كما أن بعضها الآخر يفتقر إلى التحليل، والتمثيل، والتأصيل .. وهكذا سيسجل ملاحظاته المختلفة، وأشد الناس حاجة إلى هذه الأمور، هو المؤلف. ومؤلف هذا الكتاب من أحوج الناس إلى التعلم، وطلب المعرفة، وتلقي النصح، والترشيد من الأساتذة، والعلماء، والمفكرين المتخصصين في هذه الحقول العلمية.

وفي ختام هذه الدراسة أريد أن أنبه إلى أن هذا الكتاب هو القسم الأول في هذه السلسلة، التي خصصتها لدراسة قضايا التغيير الحضاري، في ضوء السنة النبوية. وهي محاولة إنسان مسلم، مقصده الأساس، هو المساهمة في تحريك طاقات الأمة الحيوية من الأفكار، والأشخاص والأشياء، لتسير على خط «الاستخلاف». وكما يعلم القارئ الكريم أن الذي يريد أن يخوض معركة الاستخلاف في الأرض، بحاجة إلى منهج تغييري، وكما رأى القارئ في الكتاب، أهمية المنهج النبوي في التغيير الحضاري الجديد.. وعليه فالحركة الإسلامية المعاصرة، بحاجة إلى فتح فصل كامل من فصول التغيير، يتعلق بدراسة هذا المنهج الفطري المنسجم مع قانون الحياة السليم.

والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق الدكتور : شعبان محمد إسماعيل .
- أزمة العقل المسلم ، أبو سليمان عبد الحميد أحمد ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة : ١٩٩١م . ط : ١ .
- أفكار ورجال - قصة الفكر الغربي - كرين برنتن ، ترجمة : محمود محمود .
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، الدكتور : طه جابر فياض العلواني ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة : ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ط : ١ .
- إقرأ وربك الأكرم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، السنة : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .
- البرهان ، إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، تحقيق وتقديم ، د. عبد العظيم الديب .
- تجديد التفكير الديني في الإسلام ، محمد إقبال ، ترجمة : محمود عباس ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٩٦٨م .

- حتى يغيروا ما بأنفسهم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، ط: ٦ ، السنة : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- السنة النبوية ومنهجها في بناء الحضارة والمعرفة ، ندوة عقدت في عمان ما بين ١٥ - ١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
- شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، السنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ، محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة الرابعة ، السنة : ١٩٨٢م .
- كيف نتعامل مع السنة النبوية - معالم وضوابط - الدكتور يوسف القرضاوي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- العلم في منظوره الجديد ، روبرت أغروس و جورج . ستاسنيو ، كتاب عالم المعرفة رقم : ١٣٧ ، السنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، السنة : ١٣٤٨هـ .
- مختصر تفسير ابن كثير ، الحافظ ابن كثير ، اختصار وتحقيق : محمد على الصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت ، الطبعة الثالثة ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م .

- المستصفي من علم الأصول ، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، منشورات الشريف الرضي ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٣٤٢هـ.
- معيار الوحي في الفكر الإسلامي ، البروفيسور عبد المجيد مكين ، ندوة عقدت باليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان ، طوكيو ، ٢٠ - ٣٠ مارس ١٩٨٠م (باللغة الإنجليزية).
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق : الدكتور عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة.
- الموافقات في أصول الشريعة ، أبو إسحاق الشاطبي ، دار الفكر العربي.
- ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق . السنة : ١٩٨١م.
- دراسة في البناء الحضاري - محنة المسلم مع حضارة عصره - الدكتور : محمود منجم سفر ، كتاب الأمة ، رقم ٢١ ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤٠٩هـ .
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، الشيخ الطيب برغوث ، دار البعث للطباعة والنشر - قسنطينة ، الجزائر - ، الطبعة الأولى .
- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ، مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .
- هذا الدين ، الشهيد سيد قطب ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، الطبعة الرابعة ، السنة : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .



- \* تقديم بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنه ..... ٧
- \* تمهيد ..... ٣٧
- \* الفصل الأول : الإطار العام لدراسة المنهج النبوي ..... ٤١
- أهمية النظر الكلي في قضايا السنة ..... ٤١
- معالم منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين ..... ٤٥
- البعد المقاصدي للمنهج النبوي ..... ٤٦
- البعد البلاغي للمنهج النبوي ..... ٥٠
- ١ - مفهوم البلاغ المبين وشروطه ..... ٥٣
- ٢ - محاور نظرية البلاغ المبين ..... ٥٥
- دروس من الفقه النبوي ..... ٦٢
- \* الفصل الثاني : المنهج النبوي والتغيير في العصر العالمي ..... ٦٥
- وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري ..... ٦٦
- من سنن البناء الحضاري ..... ٦٧
- خصائص الواقع العالمي الراهن ..... ٦٩
- المنهج النبوي وقدرته على البناء ..... ٨٢
- من أجل قراءة أخرى للسنة ..... ٨٣
- المنهج النبوي يحدد المازق العالمي الراهن ..... ٨٦